حياة أعظم الرسل

قريش تشكو الرسُول
إلى عمّه أَبي طالِب

قريش تشكو الرسول
إلى عمه أبي طالب

رَأَى الْكُفَّارُ مِن قُرَيشٍ فِى مَكَّـةَ أَنَّ تَعذِيبَهُم لِلْمُسلِمِينَ لَم يَأْتِ بِالنَّتِيجَةِ الَّتِى يُرِيدُونَهَا ، وَأَنَّ الْإِسلَامَ يَجذِبُ قُلوبَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَعُقُولَهُم ، وَلَحظُوا أَنَّ عَـدَدَ الْمُسلِمِينَ يَزِيدُ كُلَّ يَومٍ ، فَفَكَّرُوا فِى أَن يَتَحَادَثُوا مَعَ الرَّسُولِ ، وَرَجَوْا أَن يُغَيِّرَ رَأْيَهُ ، وَيَترُكَ دَعوَةَ النَّاسِ إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ .

فَأَرسَلُوا إِلَيهِ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ لِيَعرِضَ عَلَيهِ أُمُورًا لِيَمتَنِعَ عَنِ الدَّعوَةِ إِلَى الإِسلَامِ ،

فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَهُوَ يُصَلِّى فِى الْمَسجِدِ . وَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ أَخِى ، إِنَّكَ مِنَّا ، وَمِن أَحسَنِنَا شَرَفًا وَنَسَبًا ، وَإِنَّكَ قَدْ جِئتَ إِلَى قَومِكَ بِأَمرٍ عَظِيمٍ ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُم ، وَحَكَمْتَ عَلَى عُقُولِهِم بِالْحُمْقِ وَالْجَهلِ ، وَعِبْتَ آلِهَتَهُم الَّتِى يَعبُدُونَهَا ، وَحَكَمْتَ بِالْكُفْرِ عَلَى مَن مَاتَ مِن آبَائِهِم وَأَجدَادِهِم ، فَاسمَعْ مِنِّى لِأَعرِضَ عَلَيكَ أُمُورًا أَرجُو أَن تَقْبَلَ بَعضَهَا . فَقَالَ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، أَسمَع .

فَقَالَ : يَا ابنَ أَخِى ، إِن كُنتَ تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِن هٰذَا الْأَمرِ مَالاً جَمَعنَا لَكَ مِن أَمْوَالِنا مَا تُحِبُّ ؛ حَتَّى تَكونَ أَكثَرَنَا مَالاً .
وَإِن كُنتَ تُرِيدُ شَرَفًا جَعَلنَاكَ سَيِّدًا عَلَينَا ، لَانُنَفِّذُ أَمرًا مِن غَيرِ أَن نَستَشِيرَكَ فِيهِ . وَإِن كُنتَ تَرِيدُ مُلْكًا جَعَلنَاكَ مَلِكًا عَلَينَا .

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ : هَل انتَهَيتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ ؟

قَالَ : نَعَم . فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ : اِستَمِعْ مِنِّى .

فَقَالَ : إِنِّى مُستَمِعٌ . فَقَرَأَ عَلَيهِ رَسُولُ اللهِ

الآيَاتِ الأُولَى مِن سُورَةِ فُصِّلَتْ :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ .
تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَت
آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعلَمُونَ(١) . بَشِيرًا
وَنَذِيرًا(٢) ، فَأَعرَضَ أَكثَرُهُمْ ، فَهُم
لاَ يَسمَعُونَ . وَقَالُوا قُلوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ(٣)
مِمَّا تَدعُونَا إِلَيهِ ، وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ(٤) ،
وَمِن بَينِنَا وَبَينِكَ حِجَابٌ(٥) ، فَاعْمَلْ إِنَّنَا
عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى

---

(١) يَفهَمُونَ وهُم العَرَبُ .
(٢) مُبَشِّرًا مَن يُطيعُ اللهَ بِالجَنَّةِ ، وَمُنذِرًا مَن يَعصِيهِ بِالعِقَابِ .
(٣) أَغطِيَةٍ .　　(٤) ثِقَلٌ .　　(٥) خِلاَفٌ فِى الدِّينِ .

إِلَىَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا[١] إِلَيْهِ ، وَاسْتَغْفِرُوهُ . وَوَيْلٌ[٢] لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ[٣] الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيرُ مَمْنُونٍ[٤] ﴾ . وَاسْتَمَرَّ الْمُصطَفَى يَقرَأُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَولِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ[٥] اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ . وَاسْجُدُوا لِلّٰهِ

---

(١) بالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ .
(٢) عَذَابٌ .
(٣) لاَ يُعطُونَ .
(٤) مَقطُوع .
(٥) مُعْجِزَاتِهِ .

الَّذِى خَلَقَهُنَّ ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعبُدُون ﴾ .

فَسَجَدَ الرَّسُولُ ، وَقَالَ لِعُتْبَةَ :

هَلْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْت ؟

فَقَالَ عُتْبَةُ : نَعَم . وَرَجَاهُ أَن يَكتَفِى بِمَا قَرَأَ .

ثُمَّ رَجَعَ عُتْبَةُ إِلَى قُرَيشٍ ، وَهُوَ يَنتَفِضُ مِنَ الْخَوْفِ انتِفَاضَ الْعُصفُورِ . فَقَالَتْ لَهُ قُرَيشٌ :

لَقَد ذَهَبْتَ مِن عِندِنَا نَشِيطًا ، وَرَجَعْتَ خَائِفًا مَرْعُوبًا . فَمَاذَا حَدَثَ لَكَ ؟ فَقَالَ عُتْبَةُ :

وَاللهِ لَقَد سَمِعْتُ قَولاً مَا سَمِعْتُ مِثلَهُ

مِن قَبْلُ . وَاللهِ إِنَّهُ لَيس بِالشِّعْرِ . وَلَيس بِالسِّحْرِ. أَطِيعُونِى ، وَاتْرُكُوا هٰذَا الرَّجُلَ لِيَسِيرَ فِى عَمَلِهِ ، وَاعتَزِلُوهُ إِذَا أَرَدتُمْ . وَاللهِ سَيَكُونُ لِكَلَامِهِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِى الْعَالَمِ . فَإِنِ انتَصَرَ الْعَرَبُ عَلَيهِ فَقَدِ استَرَحْتم مِنهُ. وَإِن يَنتَصِرْ عَلَى الْعَرَبِ فانتِصَارُهُ انتِصَارٌ لَكُمْ ، وَمُلْكُهُ مُلكُكُمْ . فَقَالُوا لَهُ : لَقَد سَحَرَكَ مُحمدٌ ، وَأَثَّرَ فِيكَ بِكَلَامِهِ : قَالَ عُتْبَةُ : هٰذَا رَأْيِى فِيهِ ، فَافعَلُوا مَا تُرِيدُون .

ثُمَّ عَرَضُوا عَلَى الرَّسُولِ بَعدَ ذٰلِكَ أَن يُشَارِكَهُمْ فِى عِبادَتِهِم ، وَيُشَارِكُوهُ فِى

عِبَادَتِهِ ، فَأَنزَلَ اللهُ عَلَيهِ : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لاَ أَعبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(١) . وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٢) . وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ(٣) . وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٤) . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ(٥) ﴾ . وَحِينَمَا خَابَ كُفَّارُ قُرَيشٍ فِى جَعْلِ مُحمدٍ يُغَيِّرُ طَرِيقَتَهُ ذَهَبُوا إِلَى عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ ، لِيُعطِيَهُم مُحمدًا

---

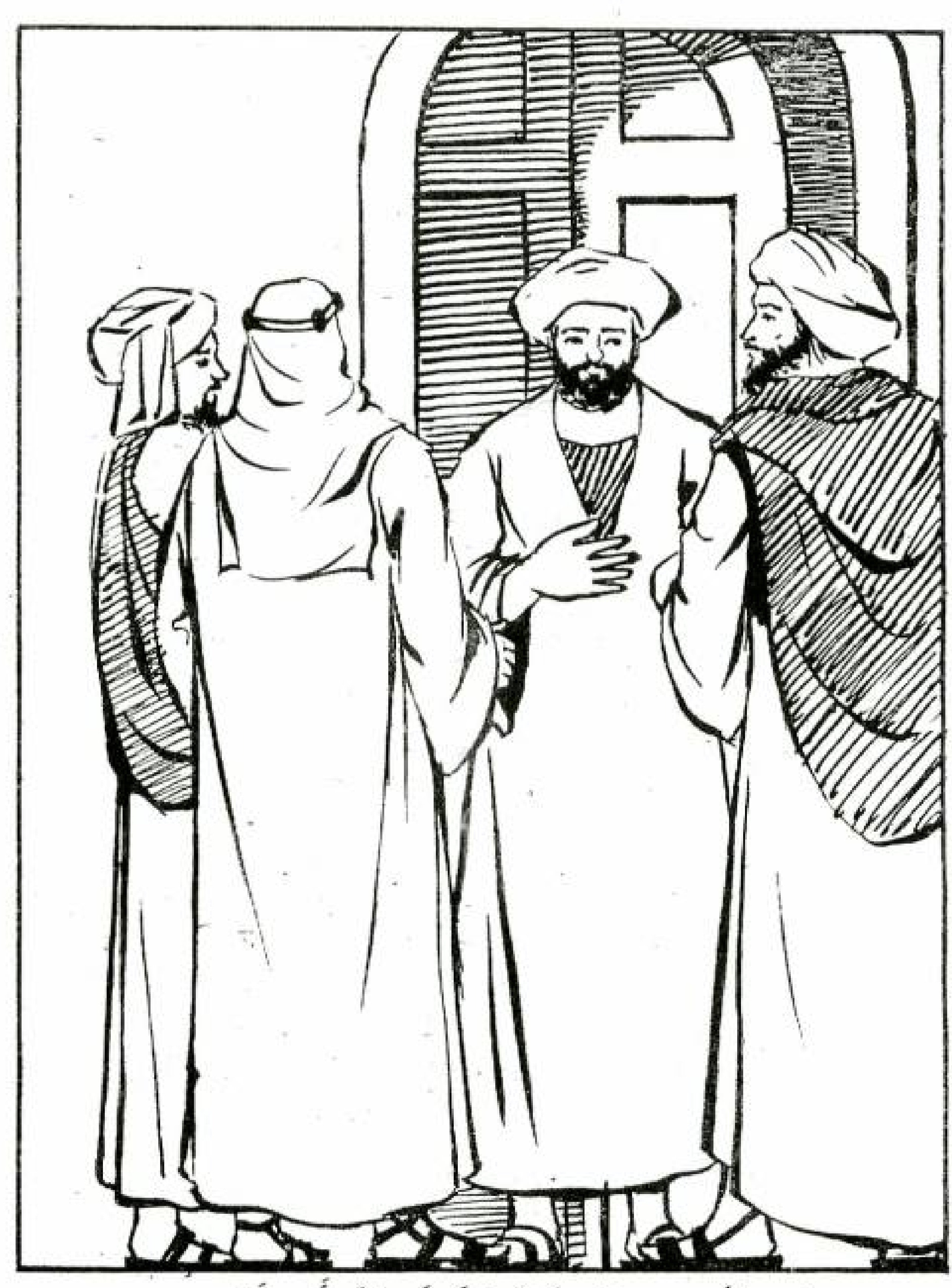
(١) الإِلَهَ البَاطِلَ الَّذِى تَعبُدُونَهُ .

(٢) الإِلَهَ الحَقَّ الَّذِى أَعبُدُهُ أَنَا .

(٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ عِبَادَتَكُم البَاطِلَةَ .

(٤) وَلاَ أَنتُم عَابِدُونَ عِبَادَتِى الصَّحِيحَةَ .

(٥) لَكُم دِينُكُم لاَ يَتعدَّاكُم شَرُّهُ ، وَلِى دِينِى لاَ يَصِلُكُم خَيرُهُ .



زُعَمَاءُ قُرَيشٍ يشكونَ الرَّسُولَ إلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ

وَيُعْطُوهُ عُمَارَةَ ابنَ الْوَلِيدِ بَدَلاً مِنـهُ ، وَقَالُوا لَهُ : هٰذَا أَقوَى فتًى فِى قُرَيشٍ ، خُذْهُ وَانتَفِعْ بِعَقْلِهِ وَشَجَاعَتِهِ ، وَاجعَلْهُ وَلَدًا لَكَ ، وَأَعْطِنَا مُحمدًا ، هٰذَا الَّذِى خَالَفَ دِينَكَ ، وَدِينَ آبائِكَ ، وَفَرَّقَ بَينَ قَومِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَصَفَهُم بِنَقْصِ عُقُولِهِم . أَعْطِنَا مُحمدًا لِنَقتُلَهُ . وَخُذْ هٰذَا الرَّجُلَ بَدَلاً مِنْهُ . وَهُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ .

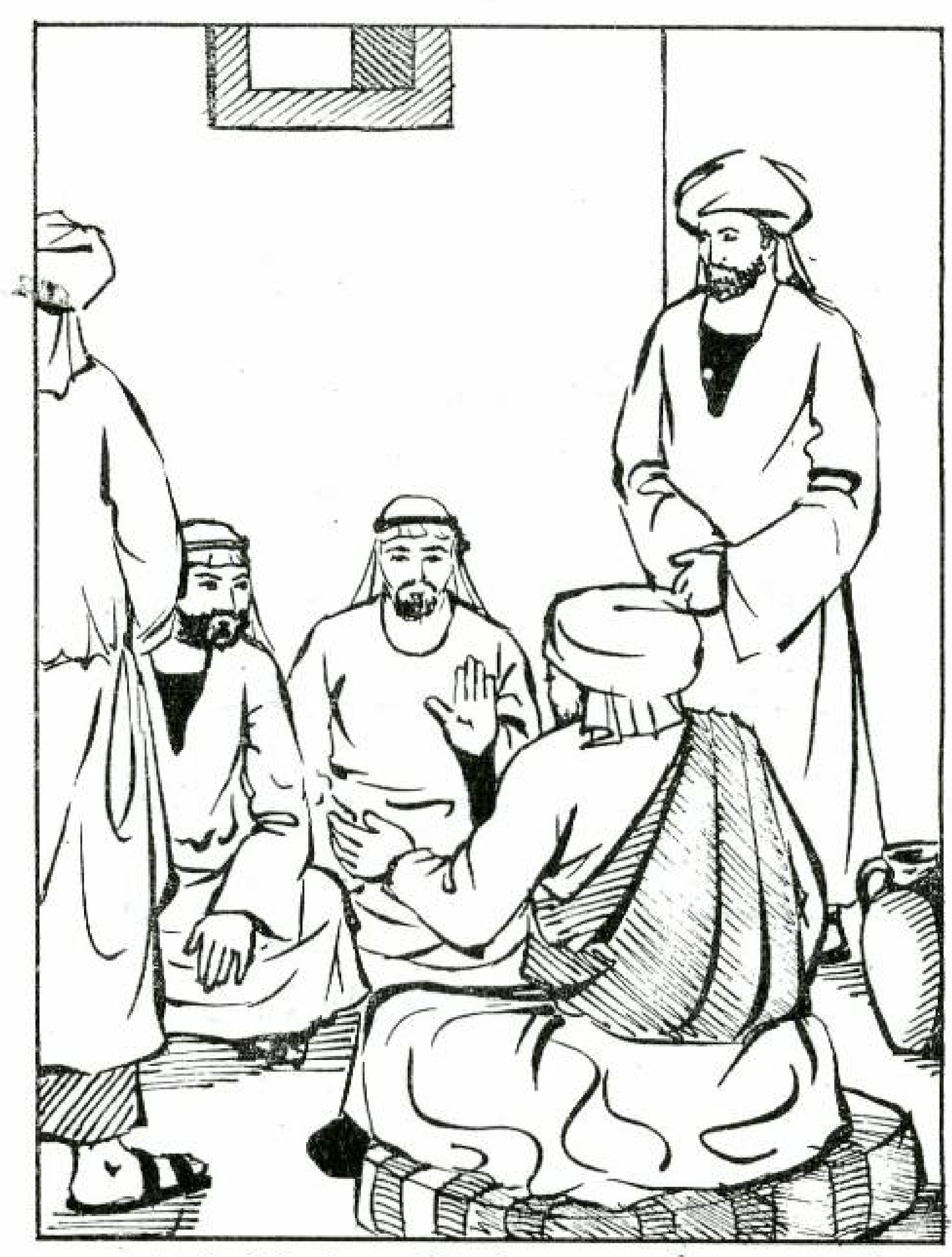
قَالَ أَبُو طَالِبٍ : هٰذَا كَلاَمٌ لاَ يَقبَلُهُ أَىُّ عَقلٍ ، فَأَنتُمْ تُرِيدُونَ أَن تُعطُونِى ابنَكُم لِأُطْعِمَهُ ، وَأَعتَنِى بِهِ ، وَأُعطِيَكُم ابْنِى

لِتَقتُلوهُ . هٰذَا مُستَحِيلٌ ، وَلاَ يُمْكِنُنِي أَن أَقبَلَهُ ، مَهمَا يَكُنِ الْأَمرُ . هَلْ رَأَيتُمْ نَاقَةً تَحِنُّ إِلَى غَيرِ ابْنِهَا ، وَتَعْطِفُ عَلَيهِ ؟ فَقَالُوا لَهُ : لَقَد قُمْنَا بِمَا يَجِبُ عَلَيْنَا لَكَ ، وَلٰكِـنَّكَ لاَ تُرِيدُ أَن تَقبَلَ مِنَّا شَيْئًا . فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنَّكُمْ قَدِ اتَّفَقْتُم عَلَى أَن تَقِفُـوا ضِدِّى . فَافْعَلُوا مَا تُرِيدُونَ . وَلَن أَخْذُلَ مُحمدًا ، (أَىْ وَلَن أَتـرُكَ مُسَاعَدَتَـهُ وَنُصْرَتَـهُ) . فَغَضِبَت قُرَيشٌ كُلَّ الْغَضَبِ ، وَأَخَذَت كُلُّ قَبِيلَةٍ تُعَذِّبُ مَن فِيهَا مِنَ المُسلِمِينَ ؛ لِيَترُكُوا الْإِسلاَمَ . فَدَعَا أَبو طَالِبٍ أَهلَهُ وَأَقَارِبَهُ ،

وَأَخْبَرَهُم بِمَا حَدَثَ ، وَطَلَبَ مِنهُم الْمُحَافَظَةَ عَلَى مُحمدٍ ، وَالدِّفَاعَ عَنهُ ، فَأَجَابُوا دَعْوَتَهُ ، وَتَسَاوَى فِى ذٰلِكَ الْمُسلِمُ وَالْكَافِرُ مِنهُم . وَلَم يَشُذَّ مِن أَهْلِهِ إِلاَّ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ ؛ فَإِنَّهُ وَقَفَ مَعَ كُفَّارِ قُرَيشٍ ضِدَّ الرَّسُولِ ، وَكَانَ مِن أَشَدِّ أَعْدَائِهِ إِيذَاءً لَهُ .

إِستَمَرَّ الْمُصطَفَى فِى أَدَائِهِ لِرِسَالَتِهِ ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ . وَلَم يُبَالِ إِيذَاءً أَوِ استِهْزَاءً .

ثُمَّ اشتَدَّ الْأَمرُ بَينَ كُفَّارِ قُرَيشٍ ، وَحَسَدُوهُ ، وَشَجَّعَ بَعضُهُم بَعْضًا عَلَى



أَبُو طَالِبٍ يُخبِرُ أَقَارِبَهُ بِمَا حَدَثَ وَيَأْمُرُهم بِالمُحَافَظَةِ عَلَى مُحمدٍ

إيذائِهِ . وَمَشَوْا إلَى أَبِى طَالِبٍ ، فَقَالَوا لَهُ : إنَّكَ كَبِيرُ السِّنِّ . وَلَكَ مَركَزٌ كَبِيرٌ بَيْنَنَا . وَكُلُّنَا نَحترِمُكَ لِشَرَفِكَ . وَقَد طَلَبْنَا مِنكَ أَنْ تَمنَعَ ابنَ أَخِيكَ عَمَّا يَفعَلُ ، وَتَنهَاهُ عَمَّا يَدْعُو إلَيهِ ، فَلَمْ تَمنَعْهُ . وَإنَّنَا لاَ نَستَطِيعُ السُّكُوتَ عَلَى هٰذَا ، حَتَّى تَمنَعَهُ عَنَّا ، أَو نُقَاتِلَهُ وَنُقَاتِلَكَ مَعَهُ ، حَتَّى تَمُوتَ أَو نَمُوتَ نَحنُ ، ثُمَّ خَرَجُوا . فَتَضَايَقَ أَبُو طَالِبٍ ، وَكَانَ فِى حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ . كَيفَ يَعتَزِلُ قَومَهُ وَقَدِ احتَرَمُوهُ وَقَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ ؟

وَلَمْ تَرْضَ نَفسُهُ أَن يَترُكَ الرَّسُولَ وَحدَهُ لِيُؤْذُوهُ أَوْ يَقتُلُوهُ . وَهُوَ يُحِبُّهُ أَكثَرَ مِن أَبنَائِهِ ؟

فَأَرسَلَ إِلَيهِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ أَخِى ، إِنَّ قَومَكَ قَد جَاءُونِى ، وَقَالُوا لِى : إِنَّكَ تَنتَقِدُهُم ، وَتَنتَقِدُ عِبادَتَهُم ، فَفَكِّرْ فِىَّ ، وَفِى نَفسِكَ ، وَلاَ تُحَمِّلْنِى مِنَ الأَمرِ شَيْئًا لاَ أَستَطِيعُ أَن أَحْتَمِلَهُ . فَأَحَسَّ مُحَمَّدٌ بِأَلَمِ عَمِّهِ ، وَتَأَلَّمَ لَهُ ، وَظَنَّ أَنَّهُ سَيَترُكُهُ لِأَعدَائِهِ ، وَأَنَّهُ قَد صَارَ ضَعِيفًا لاَ يَستَطِيعُ أَن يُدَافِعَ عَنهُ . وَمَاذَا يَفعَلُ وَهُوَ يَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ

أَنَّ عَلَيهِ وَاجِبًا يَجِبُ أَن يَقُومَ بِهِ وَيُنَفِّذَهُ ؟
فَقَالَ لِعَمِّهِ مَا مَعْنَاهُ : « عَمِّى الْعَزِيزَ ، أَنتَ تَعلَمُ مِقدَارَ حُبِّى وَاحتِرَامِى لَكَ . وَلٰكِنَّنِى لاَ أَستَطِيعُ أَن أُهمِلَ أَدَاءَ الرِّسَالَةِ . فَوَاللّٰهِ ، لَو وَضَعُوا الشَّمسَ فِى يَمِينِى ، وَالْقَمَرَ فِى يَسَارِى عَلَى أَن أَتُركَ هٰذَا الأَمرَ لَن أَترُكَهُ ، وَلَو أَدَّى ذٰلِكَ إِلَى مَوْتِى . لَن أَترُكَهُ حَتَّى يُظهِرَ اللّٰهُ دِينَهُ ، وَيَنشُرَهُ » . ثُمَّ بَكَى ، وَقَامَ ، وَخَرجَ . فَتَأَثَّرَ عَمُّهُ ، وَنَادَاهُ ، وَقَالَ لَهُ : اِذهَبْ يَا بُنَىَّ ، وَقُلْ مَا تُحِبُّ ، فَوَاللّٰهِ لاَ أَترُكُكَ أَبَدًا . وَسَأَقِفُ بِجَانِبِكَ مَهمَا تَكُنِ النَّتِيجَةُ .